الفصل الأول
صفاته ﷺ قبل البعثة

وفيه أربع صفات:

- **الصفة الأولى: وردت في قوله تعالى:** ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.
- **الصفة الثانية: وردت في قوله تعالى:** ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾.
- **الصفة الثالثة: وردت في قوله تعالى:** ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾.
- **الصفة الرابعة: وردت في قوله تعالى:** ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

الفصل الأول

صفاته ﷺ قبل البعثة

توطئة:

وصف الله جل وعلا نبينا ﷺ في حال بعثته ونبوته بصفات كثيرة في القرآن الكريم..

أولاها بالمعرفة، هي صفاته ﷺ قبل أن يبعثه الله تعالى نبياً لهذه الأمة..

وقد وردت له في القرآن الكريم بعض صفاته ﷺ قبل البعثة وهي مجال الحديث في هذا الفصل..

الصفة الأولى

وردت في قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾

الصفة الأولى:

وردت في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾

أولاً: المعنى اللغوي لصفة الغفلة:

الغفلة عن الشيء: تركه، وعدم تجربته.

قال ابن فارس: «(غَفَلَ): الغين والفاء واللام: أصل صحيح يدل على: ترك الشيء سهوا، وربما كان عن عمد، من ذلك: غَفَلْتُ عن الشيء غَفْلَةً وغُفُولاً: وذلك إذا تركته ساهياً، وأَغْفَلْتُهُ: إذا تركته على ذُكْرٍ منك له، ويقولون لكل ما لا مَعْلَمَ له: (غُفْلٌ)، كأنه غُفِلَ عنه، فيقولون: (أرض غُفْلٌ): لا عَلَمَ بها، (وناقة غُفْلٌ): لا سِمَةَ عليها، (ورَجَلٌ غُفْلٌ): لم يُجَرِّب الأمور»[1].

الآية التي وصف فيها النبي ﷺ بهذه الصفة:

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ (يوسف: ٣).

ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى الآية:

❖ **في سببها:**

ذكر الطبري أن هذه الآية نزلت في الصحابة رضوان الله تعالى عليهم لما سألوا رسول الله ﷺ أن يقص عليهم.

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٤/٣٨٦).

روى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا، قال: فنزلت: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ...﴾ (يوسف: ٣)» وقال: «مَلَّ أصحاب رسول الله ﷺ مَلَّة، فقالوا: يا رسول الله حدثنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ...﴾ (الزمر: ٢٣)، ثم ملوا ملة أخرى فقالوا: يا رسول الله حدثنا فوق الحديث ودون القرآن ـ يعنون القصص ـ فأنزل الله: ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (يوسف: ١ – ٣)، فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص»[(١)].

❖ **في معناها:**

اختلفت عبارات المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ على قولين:

١ – أن المعنى: لمن الغافلين عن القرآن والوحي[(٢)]، وبه قال قتادة[(٣)].

٢ – أن المعنى: لمن الغافلين عن قصة يوسف[(٤)].

والذي يظهر أن الاختلاف هنا ليس اختلاف تضاد بل هو اختلاف تنوع ـ كما

---

(١) «جامع البيان»: (١٢/١٥٠).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (١٢/١٥٠)، «الكشاف»: (٢/٤١٦)، «تفسير القرطبي»: (٩/١٢٠)، «تفسير السعدي»: (٣٩٣).

(٣) «جامع البيان»: (١٢/١٥٠).

(٤) انظر: «جامع البيان»: (١٢/١٥١)، «معالم التنزيل»: (٢/٤٠٨)، «المحرر الوجيز»: (٣/٢١٩)، «التفسير الكبير»: (١٨/٦٩)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٢/١١٤)، «البحر المحيط»: (٥/٢٨٠)، «نظم الدرر»: (٤/٧)، «فتح القدير»: (٣/٤).

أوضح هذا شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمة في أصول التفسير[1] ـ وذلك لأنه ﷺ قبل الوحي كان غير عالم بالقرآن عموماً، ولا بقصة يوسف خصوصاً، ولا بالدين والشريعة أيضاً، فلا مانع من الجمع بين القولين، والله تعالى أعلم.

قال ابن عطية: «والضمير في: (قبله) للقصص العام لما في جميع القرآن منه، و(من الغافلين): أي عن معرفة هذا القصص.

ومن قال إن الضمير في: (قبله) عائد على: (القرآن) جعل (من الغافلين) في معنى قوله تعالى: ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ** ﴾ (الضحى: ٧)، أي: على طريق غير هذا الدين الذي بعثت به ولم يكن ﷺ في ضلال الكفار ولا في غفلتهم؛ لأنه لم يشرك قط وإنما كان مستهديا ربه ﷻ موحداً»[2].

ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

١ – وصف الله تعالى لنبيه في حال عدم العلم بالغفلة:

وذلك لإجلال شأن النبي ﷺ[3] فهذا شأنه سبحانه في الحديث عن نبيه ﷺ من إجلاله وتعظيمه، والدفاع عنه، بل والرفق في عتابه، وكما هو في هذا الموضع نلحظ أن الحديث القرآني يصل إلى غاية التلطف مع النبي ﷺ وإجلاله عن عدم العلم بمجرد الغفلة، والتي انتفت عنه بمجرد بلاغه بالقرآن والوحي.

٢ – نكتة جعله ﷺ ـ من الغافلين ـ دون أن يوصف وحده بالغفلة فلم يقل (وإن

---

(١) «مقدمة في أصول التفسير» مع شرح د. مساعد الطيار (٢١).

(٢) «المحرر الوجيز»: (٣/٢١٩).

(٣) انظر: «روح المعاني» (١١-١٢/١٧٧)، «تفسير القاسمي» (٩/٣٥٠٣).

كنت من قبله لغافلاً):

«وذلك للإشارة إلى تفضيله بالقرآن على كل من لم ينتفع بالقرآن فدخل في هذا الفضل أصحابه، والمسلمون على تفاوت مراتبهم في العلم»[1].

٣ – **التأكيد لهذه الصفة بأنواع المؤكدات** وهي: (إِنْ) المخففة، واللام في (لَمِن).

يقول ابن القيم رحمه الله: «وكذلك مواضع كثيرة تتنازع النحاة في وجه دلالتها مع اتفاقهم على المعنى كقوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ (يوسف: ٣).

فالبصريون يجعلونها مخففة من الثقيلة، واللام فارقة بين المخففة والنافية، والكوفيون يجعلونها نافية واللام بمعنى إلا»[2].

والذي يظهر ترجح قول البصريين من أنها «إِنْ» المخففة، «والدليل على أنها مخففة من الثقيلة: لزوم اللام في الخبر»[3].

رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

تتابعت آيات القرآن الكريم تترى على ذكر حال النبي ﷺ قبل بعثته، من عدم العلم بما أوحي إليه من أخبار وقصص وأحكام، فكون النبي ﷺ كان غافلاً عن الوحي قبل بعثته يصدق هذا أمور عدة منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ – أنه لم يعرف عنه ﷺ أنه أوتي غرائب الأخبار، والغيبيات، والعلوم، وهو المشهور بصدق الحديث ﷺ.

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/٢٠٤).

(٢) «الصواعق المرسلة» (٢/٧٥١).

(٣) «اللامات» (١/١١٤).

٢ – أن ما جاء به القرآن من القصص والأخبار فوق طاقة العقل البشري، مما يدل على أن كل تلك القصص إنما وردت للنبي ﷺ عن طريق التلقي، وإنما كان ذلك بالوحي فقط، وقد ربط تعالى بين التنزيل وسرد القصص على مسامع النبي ﷺ كما في الآية التي معنا: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (يوسف: ٣).

٣ – وقد تناول القرآن قصص الأنبياء والرسل، وأخبار الماضين بتفصيل لحقائقها ووقائعها بشكل واضح تعجز عنه العقول، فالقرآن يضرب في أغوار التاريخ، ويخبر عن أقدم الأخبار في خلق الأمم، مما يتجاوز حدود إعمال الفكر، بحيث يستحيل على النبي ﷺ أو غيره أن يعرفها أو يطلع على أخبارها، كما في نبأ ابني آدم في قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ (المائدة: ٢٧ – ٣١).

٤ – وقد نفى القرآن إطلاع النبي ﷺ على تلك الأحداث كما في الآيات التالية:

«كقوله في آل عمران: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٤٤) أي فلولا أن الله

أوحى إليك ذلك لما كان لك علم به وقوله تعالى في سورة هود: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (هود: ٤٩)، وقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٢)، وقوله في القصص: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (القصص: ٤٤) وقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (القصص: ٤٥).

إلى غير ذلك من الآيات يعني لم تكن حاضراً يا نبي الله لتلك الوقائع فلولا أن الله أوحى إليك ذلك لما علمته»[(١)].

خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

- صفة الغفلة في حق النبي ﷺ ليست صفة نقص، إنما وصفه بها ربه تعالى ـ بدلاً عن عدم العلم ـ إجلالاً لشأنه ﷺ كما مر معنا في كلام أهل العلم، بينما هي في حق سائر البشر صفة نقص بل هي من عيوب النفس[(٢)].

- من كان غافلاً عن أوامر الله تعالى أو عن ما تزكو به نفسه، ثم جاءه العلم، فالواجب عليه أن يأتسي بالنبي ﷺ من حيث الامتثال والتزكي والانصياع لأوامر الله

(١) «أضواء البيان»: (٤/ ٩٤).

(٢) وهذا في الأكثر والغالب، وإلا فإن الله تعالى امتدح الغافلات في سورة النور في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ (النور: ٢٣). فأتى بوصف الغفلة فيهن في سياق إحصانهن وإيمانهن، قال الطبري: «يعني العفيفات الغافلات عن الفواحش المؤمنات بالله ورسوله»: انظر: «جامع البيان»: (١٨/ ١٠٥).

ورسوله ﷺ، فرسول الله ﷺ ما إن كلف بالبلاغ حتى نهض يدعو إلى الله تعالى بكل جد وإخلاص وتفان.

- والإنسان معرض للغفلة، ولكن التقي هو لذي إذا تذكر تيقظ وأعرض عن غفلته، وأقبل على الله، يقول تعالى ذكره: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

- أثر الغفلة خطير على النفس البشرية، يقول ابن القيم رحمه الله: «إن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلما كان أقرب من الله بعدت عنه الآفات، والبعد من الله مراتب بعضها أشد من بعض؛ فالغفلة تبعد العبد عن الله، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة، وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية، وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله»[1].

- الواجب على العبد إذاً التيقظ، ومحاسبة النفس، يقول ابن القيم رحمه الله: «وجماع ذلك: أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض، فإن تذكر فيها نقصاً تداركه إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به أو مشت إليه رجلاه أو بطشت يداه أو سمعته أذناه: ماذا أرادت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟ ويعلم أنه لابد أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلته؟ وكيف فعلته؟ فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني: سؤال عن المتابعة، وقال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(١) «الجواب الكافي» (١/٥٣).

(الحجر: ٩٢)، وقال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأعراف: ٦)، وقال تعالى: ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٨)»[1].

❖ ❖ ❖

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٨٣، ٨٢).